شرح

العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

شرحها

الشيخ/ توفيق الصائغ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم، وبارك على سيدنا وإمامنا، وقدوتنا محمد اللهم صلي عليه وعلى آله، وصحابته وسلم تسليمًا كثيرًا.

اللهم صلِّ عليه ما حيا الحياة أرضًا وما شرفت بتسليم الفم

يا رب صلِّ على النبي محمدِ ما سبحت فوق السماء الأنجم

ما سبحت رحمائها ما حام حول حمى حرامك مسلم

اللهم صلِّ عليه في الأولين، وصلي وسلم عليه في الآخرين، وصلي وسلم عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وبصيرة وعلمًا.

يتجدد اللقاء بعد انقطاع طويل في هذا الكتاب العظيم لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني –رحمه الله تعالى–، وهو المعني بشرح أصول الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة.

والعلم –كما لا يخفى عليكم– إما علمٌ بالظاهر، وإما علمٌ بالباطن، وتختلف تقاسيم العلم عند العلماء باعتبار ما يريدون التقسيم له، فالتقسيم من هذا الاعتبار؛ علمٌ بالأمور المتعلقة بالظاهر، وأخرى بالأمور المتعلقة بالباطن.

حين نتحدث عن العلم المتعلق بالظاهر، فإننا نعني به ما اصطُلح عليه بالفروع، أو الجوانب العملية؛ الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج... إلى آخره، أو ما اصطُلح عليه بالفقه.

الأصناف عند تقسيم بعض الأحناف، فإنهم يقسمون العلم إلى فقهٍ أكبر، وفقهٍ أصغر، فالفقه الأكبر عندهم؛ هو المتعلق بالاعتقاد، والفقه الأصغر عندهم هو المتعلق بالأمور العملية، أو الفروع كما يعدوا ..... أكثرهم، وهذا هو **العلم المتعلق بالظاهر**.

وأما العلم المتعلق بالباطن؛ فهو الذي محله القلب، أو الاعتقاد، وهذا الذي يعبر عنه البعض بالفقه الأكبر، أو يعبر عنه البعض بالاعتقاد أو التوحيد أو الإيمان أو السنة كما سيمر معنا إن شاء الله.

إذاً العلم بهذا الاعتبار ينقسم إلى قسمين: علمٌ متعلق بالظاهر، وعلمٌ متعلق بالباطن.

أشرف العلوم على وجه الإطلاق هو هذا العلم المتعلق بالباطن؛ وهو العلم بالله –سبحانه وتعالى–

والعلم بالله، وبما ينبغي لله –سبحانه وتعالى– أشرف العلوم، وعلى رأسه علم الإيمان، والتوحيد، والاعتقاد، إذ لا يصح من العابد عملٌ إلا بعد تصحيح المعتقد.

فكل الشريعة فرعًا للإيمان، والتوحيد، والمعتقد مصداق قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد:١٩]. وعليه بَّوب الإمام البخاري –رحمه الله تعالى– [بابٌ: العلم قبل القول والعمل]، وقال ابن أبي العز: **(وهو الفقه الأكبر)**؛ يعني العلم بالتوحيد والإيمان هو الفقه الأكبر.

مدار هذه الرسالة لشيخ الإسلام هي الاعتقاد، ولكن في أحد جوانبه، إذ لم يستفصل –رحمه الله– في هذه الرسالة لذكر أمور التوحيد كاملةً، فلم يتكلم –رحمه الله تعالى– فيما يتعلق بتوحيد العبادة، الذي نُعرِّفه بتوحيد الألوهية؛ وهو توحيد الله –تعالى– لأفعال العباد إلا نذرًا يسيرًا، ولم يتطرق له إفرادًا كما فعل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب مثلًا في كتاب التوحيد، وإنما كان مراد شيخ الإسلام في هذا الكتاب، أن يبين عقيدة أهل السنة والجماعة، عقيدة أهل الحديث، عقيدة النبي والصحابة، ومن تبعهم بإحسان فيما يتعلق بجانب توحيد الأسماء والصفات؛ لأنه الجانب الذي وقع فيه الخلاف بين طوائف الأمة.

وظهرت في عهده –رحمه الله تعالى– طوائف أهل الكلام؛ من الأشاعرة، والماتريدية، والجهمية، الذين اتضحوا الكتاب والسنة نصوصًا، وأخذوا بالأمور العقلية والمنطقية، وأرادوا أن يجروا العقيدة مجرى علم الكلام.

فانبرى لهم شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى– في أكثر من رسالة، وكان مما انبرى لهم فيه هذه الرسالة الوجيزة في المبنى، العظيمة الجزلة في المعنى والمضمون، والتي كتبها –رحمه الله تعالى– لا ابتداءً وإنما بطلب.

يقول –رحمه الله تعالى–: إن رجلًا صالحًا من قضاة واسط –وواسط: بلدٌ بالعراق– يدعى رضي الدين الواسطي، كان ذاهبًا إلى الحج، فانتهى إلى شيخ الإسلام، وطلب منه أن يكتب له عقيدةً، تكون له ولأهل بيته ولخاصة محلته.

فاستعفاه شيخ الإسلام، وذكر له أن ما كُتب في ذلك، وأنه يستطيع أن يرجع إلى ما كتبه الأكابر من أهل العلم، لكن الرجل شدَّ على شيخ الإسلام، وقال: أريد شيئًا تكتبه لي أنت، فاتكأ شيخ الإسلام بعد صلاة العصر، وكتب هذه العقيدة الواسطية، التي كتبها بعد صلاة العصر، ومكث أهل العلم فيها عصرًا ودهرًا يشرحون مفرداتها،

ويستخرجون دررها، ويملئون بها المساجد، والحلق، والجامعات، والأكاديميات شرحًا وتحشيةً، وتفصيلًا وهذا من البركة التي جعلها الله –تبارك وتعالى– لبعض خاصة أوليائه وعباده.

فهذا رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– مثلًا ينطق بالحديث الذي لا يتجاوز سطرًا مثلًا، أو دون السطر، أو أكثر منه، ثم تذهب أذهان أهل العلم متفتقةً في استحلاب هذا النص، واستخراج الفوائد والدرر، وإقامة الشروح عليه، وكذلك كان الأئمة من قبل يتكلمون بالكلام الوجيز، فتذهب أذهان العلماء كل مذهب في شرح ذلك، من هذا الكلام المبارك كلام شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى– في هذه الرسالة، وفي غيرها من الرسائل؛ لأنه قد كتب –رحمه الله تعالى– الرسالة الحموية، والرسالة التنويرية، والرسالة المراتيشية، وكتب لأهل مصر.

وقد نفع الله تعالى بهذه الرسالة نفعًا كبيرًا، فانتشرت حتى في حياة شيخ الإسلام–رحمه الله تعالى–، فذكر هو في الفتاوى وفي غيرها أن الناس تناسخوا هذه الرسالة، وأنها شرقت في البلاد وغربت، وبعد سبع سنوات من كتابتها امتحن –رحمه الله تعالى– ببعض المغرضين، وببعض أدعياء البدع فشكوه إلى السلطان، فجيء بالرسالة لم يزد عليها –رحمه الله تعالى–.

وكان من قوته في هذه الرسالة؛ أنه يقول: إنني أمهل من يخالفني ثلاث سنوات؛ لينظر في الواسطية، فإن رأى شيئًا مخالفًا لكلام الله، وكلام سوله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– فليأتني به، وهذا من تثبته –رحمه الله تعالى–.

وما قرره شيخ الإسلام في هذه العقيدة هو معتقد أهل السنة والجماعة، ولذلك كان هو أيضًا لا يحب أن تنسب هذه العقيدة إليه، ولا يحب أن تنسب العقيدة إلى أحمد؛ لأن ابن تيمية –رحمه الله تعالى– حنبلي في الفروع، أو بدأ حنبليًا ثم فتح الله عليه فصار مجتهدًا مطلقًا.

وطالب العلم يبدأ متمذهبًا، ثم إذا اتسع أفقه يصبح مجتهدًا في هذا المذهب، ثم إذا اتسع أفقه نظر في المذاهب كلها، ثم إذا اتسع بعد ذلك كانت له مرتبة الاجتهاد المطلق؛ وهو أنه لا يحتاج أن يقلد إمامًا ولا أئمةً، وإنما ينظر هو في الأدلة بآلة النظر التي عنده من العلم بالكتاب والسنة، واللغة والأصول... إلى آخره، فيرجح ويختار من أقوال أهل العلم –رحمهم الله تعالى–.

فكان شيخ الإسلام متمذهبًا في مذهب الإمام أحمد، والإمام أحمد إمام أهل السنة، ثبت في محنة القول بخلق القرآن، فرفع الله ذكره، وانتشر اسمه، وكانت له السابقة في ذلك.

هذا لا يعني أنه لم يكن في عهد الإمام أحمد –رحمه الله– من علماء قائلين بالحق، ولكنهم لما رأوا الفتنة التي حلت بأحمد من السجن والطرد والجلد، منهم من ذهب مذهب التورية حتى يسلم بنفسه.

ويُنقل عن بعضهم أنه عقد الأصابع، فقال: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كل هذه مخلوقة، وكان يشير إلى أصابعه، ويفهم المستمع أنه يشير إلى هذه الكتب، ونجا بذلك.

أما الإمام أحمد –رحمه الله تعالى– فلما رأى أن الناس قد أتوا بالصحف، وجردوا المحابر ليكتب ما يقول، فإنه ثبت في هذه المحنة وفي هذه الفتنة، وضُرب –رحمه الله تعالى– وجُلد وسُجن، ومع ذلك ثبت.

فالقصد؛ أن ابن تيمية –رحمه الله تعالى– مع كونه حنبليًا في الفروع، فإنه لم يكن يرضى أن يقال: إن هذه عقيدة أحمد، أو عقيدة أهل الحديث، وإنما كان يقول: هذه هي عقيدة القرآن، والسنة.

وكما قال بعض المغاربة: المذهب لمالك والشافعي، والظهور لأحمد –رحمه الله تعالى–، ومعنى هذا؛ أن الإمام مالك وأن الشافعي –رحمهم الله تعالى– كل هؤلاء الأئمة كانوا يدينون دين الحق، ويعتقدون معتقد أهل السنة والجماعة، وإنما كُتب الظهور لأحمد؛ لأنه هو الذي ابتُلي بفتنة القول بخلق القرآن، فكانت هذه فتنة مظهرة، وكاشفة –رحم الله الجميع–.

الكتاب الذي بين أيدينا، **[كتاب العقيدة الواسطية]**، وهذا الكتاب على وجازته إلى أنه حظي بالكثير من الخدمة، وأُلفت فيه كما ذكرت لكم التآليف والتصانيف والشروح والحواشي، ولا يزال يُدرس إلى يوم الناس هذا في الجامعات وفي المعاهد، وفي أربطة المساجد كذلك.

فممن كتب شرحًا لهذا الكتاب؛ الشيخ عبد العزيز الرشيد، في التنبيهات السُّنية، أو السَّنية على العقيدة الواسطية، وكذلك الشيخ عبد الرحمن بن سعدي –رحمه الله تعالى–، وهو شيخ شيخنا الشيخ ابن عثيمين، له كتاب **[التنبيهات اللطيفة في المباحث المنيفة فيما احتوت عليه الواسطية]**.

كذلك التعليقات السَّنية على العقيدة الواسطية لفيصل بن عبد العزيز المبارك، وهناك شرح للعقيدة الواسطية للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة السابق، وشيخ شيخ مشايخنا الشيخ عبد العزيز بن باز، وقد قرر، أو حرر هذا الشرح محمد بن عبد الرحمن بن قاسم جامع الفتاوى –رحمهم الله تعالى–، ثم اعتنى به إمام الحرم النبوي الشيخ عبد المحسن بن قاسم.

وللعقيدة الواسطية شرح أيضًا للشيخ محمد خليل هراس، وهناك كتاب [**الكواشف الجلية عن معاني الواسطية**] للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان، وله كتاب آخر عبارة عن أسئلة وأجوبة عن العقيدة الواسطية. مشكلة كتب الشيخ عبد العزيز السلمان أنه كان يشترط ألا تُباع، فطُبعت طباعات خيرية، ثم توقفت، ولذلك لا تتوفر لكثير من طلبة العلم.

كذلك من شروح العقيدة الواسطية؛ [**التعليقات الذكية على العقيدة الواسطية**] للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبريل –رحمه الله تعالى–، وما من علمٍ من أعلام المسلمين في العصر الحاضر إلا وله شرحٌ صوتي مسجل، أو مكتوب؛ من ذلك شيخنا الشيخ محمد الصالح العثيمين، له شرحٌ مطبوع، وله شرحٌ مسموع، والشيخ صالح الفوزان كذلك، والشيخ البراد، والشيخ الغنيمان في [**السبائك الذهبية**]، والشيخ صالح آل الشيخ –حفظه الله– في [**اللآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية**].

وأما طلاب شيخنا ابن عثيمين؛ أمثال: الدكتور أحمد القاضي، والشيخ خالد المصلح، والشيخ عبد الرحمن الدهش، وعدد كبير من المشايخ، فإن لهم شروحًا مسجلة، إما عبر دوراتٍ علمية، أو غيرها لمتن العقيدة الواسطية.

وأظنني لست بحاجة لتقرير أهمية الاعتقاد مع المقدمة التي ذكرتها، كونه رأس العلوم، وكون احتواء عقيدة أهل السنة والجماعة على صحاء المشرب ((١٩:٢٦)) ، وأن منبعها الكتاب والسنة، وأنها بعيدة عن كلام المتكلمين، وفلسفة الفلاسفة، ومنطقة المناطقة، بل هي سهلةٌ واضحةٌ ينشرح لها الصدر، ويلتئم لها الصبر.

التعريف بالمؤلف ابن تيمية –رحمه الله-:

سأتجاوز ذلك لأنه معلوم، وانتقل بعد أن عرفت قليلًا بالكتاب إلى أن أُعرِف بصاحب الكتاب، والحق أنه غنيٌ عن التعريف؛ لأنه شامةٌ في وجه التاريخ، وعلمٌ من أعلام السنة والجهاد والعلم والدعوة، وهو الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني.

منشأ الشيخ ابن تيمية:

وُلِد –رحمه الله تعالى– في العاشر من ربيع الأول سنة واحد وستين وستمائة للهجرة بحران، وحران ناحيةٌ من بلاد الشام.

ونشأ –رحمه الله تعالى– في بيت علم، فرضع العلم منذ نعومة أظفاره مع ما جعل الله له من مخاير الذكاء والنبوغ المبكر.

أسرته وعائلته:

جده أبو البركات مجد الدين، وهذا الاسم لا شك أنه قد مر عليكم لاسيما في أحاديث الإحكام؛ لأن لجده المجد –رحمه الله تعالى– كتاب المنتقى من أخبار المصطفى، وهو الكتاب الذي انبرى لشرحه الشوكاني في نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار، وبمناسبة ذكر هذا الكتاب، فإن سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز كان كثير الاحتفال بهذا الكتاب، شرحه مرارًا –رحمه الله تعالى– وكان ذا عناية بالغة به، وهو أوسع من بعض المختصرات في أحاديث الإحكام، أوسع من عمدة الأحكام مثلًا، وأوسع كذلك من بلوغ المرام.

إذًا جده أبو البركات المجد بن تيمية –رحمه الله تعالى– صاحب المنتقى، ووالده شهاب الدين عبد الحليم، وكان أيضًا من متفقة الحنابلة، تولى المشيخة بعد والده.

ومن أسرته من المجتذبين بالعلم: أخوه أبو محمد شرف الدين، وكان حنبليًا بارعًا أيضًا في المذهب، وفي هذه البيئة العلمية نشأ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية –رحمه الله تعالى–.

من أبرز الذين تلقى عنهم العلم:

وتلقى العلم مع ما تبقى من تركة أسرته، ثم انتقل عنهم ليأخذ من شيوخ، والمبرزين في عصره، واتفق له ما لم يتفق لغيره، حيث أخذ العلم عن أكثر من مائتي شيخ، كما نص على ذلك تلميذه ابن عبد الهادي –رحمه الله تعالى–.

لكن من أبرز الذين تلقى عنهم العلم: أبو محمد عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران المرداوي، وشيوخ كثر جدًا ليس المقام مقام حصرهم.

تلاميذه:

نتج عن ذلك أيضًا؛ أن لشيخ الإسلام –رحمه الله تعالى– تلاميذ لا يحصون كثرتهم، وأنا في هذا المقام أقول: لو لم يكن من تلاميذه إلا الإمام بن القيم –رحمه الله تعالى– لكفى، فالإمام ابن القيم –كما يلقب– هو شمس الدين، هو فعلًا شمس الدين إبراهيم بن محمد بن قيم الجوزية –رحمه الله تعالى– هذا من أنبل وأبرز طلابه، وليس كل طلابه ابن القيم فقط، بل المبرِّزون من طلابه كثر.

يوسف بن عبد الرحمن المرزي صاحب [**تهذيب الكمال**] من تلاميذ شيخ الإسلام –رحمة الله على الجميع، وابن عبد الهادي صاحب [**المحرَّر**] من تلاميذ ابن تيمية، والإمام الذهبي الحافظ صاحب [**السِّير**] من تلاميذ ابن تيمية، وشمس الدين محمد بن مفلح المفرح صاحب **[الفروع]** كذلك تتلمذ على ابن تيمية، ومن أبرز تلاميذه كذلك العماد إسماعيل بن عمر ابن كثير صاحب التفسير المشهور، وتلاميذه أكثر من هؤلاء الذين ذكرنا، لكن هؤلاء المبرِّزون من تلاميذ شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى-.

(٢٥:..)

والحقيقة: إن هذه الحشوة من الشيوخ الأكابر الذين تلقى عنهم، وهؤلاء التلاميذ الأفذاذ الذين تلقوا عنه، تدل على عِظَم منزلة الشيخ –رحمه الله تعالى-، تمذهب بمذهب الحنابلة، وقرأ كتبه، ثم ارتقى بعد ذلك فنظر في كتب المذاهب الأخرى، حتى ترقى للنظر في الأدلة، والأخذ عنها وهذه -كما ذكرت لكم- مرتبة الاجتهاد المطلق، التي لا يبلغها إلا القلة.

ونتج عن هذا العلم الغزير كذلك مخرجات علمية كثيرة جدًا، ومؤلفات شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى- كما ذكر الحافظ الذهبي تربو على ألف مصنف.

بالمناسبة: شيخ الإسلام مات وله سبعٌ وستون سنة، والذهبي يخبرنا أن مصنفاته تربو على ألف مصنف، وهذه هي البركة التي يتحدث عنها الكثيرون، وهي بركة الوقت التي كانت عندهم وليست عندنا.

حتى أن الحافظ بن حجر –رحمه الله تعالى- كان في أخريات حياته يشتكي أنه لا يجد بركة الوقت، التي كان يجده في شبابه، فماذا يقول الحافظ بن حجر لو عاش في مثل أزماننا هذه؟ التي أصبحت فيها السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كسائر أيامنا، أو كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم- حين تحدث عن تقارب الزمان.

الشاهد: أن الله –تعالى- طرح لهم بركةً في أوقاتهم، فكان الواحد منهم في عمرٍ يسير ينجز شيئًا كثيرًا، وممن يذكر في هذا المقال؛ الإمام النووي –رحمه الله تعالى- صاحب كتاب "رياض الصالحين"، وصاحب كتاب "المجموع"، وصاحب "التصاريف"، وهو أحد أبرز أئمة الشافعية، توفي وله خمس وأربعون سنة، ومصنفاته إلى اليوم تُعقد عليها رسائل ماجيستير، ودكتوراه، ولا يكاد يجتمع على الكتاب الواحد إلا الثُلة من طلبة العلم، والباحثين في الأكاديميات، وهو قد نجَّز ذلك في عمرٍ يسير.

إذًا مصنفات الإمام ابن تيمية –كما ذكر الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى- تربو على ألف مصنف، وأما صفاته –رحمه الله تعالى-؛ فكان كريمًا، شجاعًا، زاهدًا -رحمه الله تعالى-، وكان مجاهدًا، جاهد (٢٨:٢٥) في مواقع كثيرة، وقال كلمة الحق، وصبر، وحُبس مرارًا، وكان كريم النفس سخيًا، زاهدًا في الدنيا.

وذكر ابن القيم –رحمه الله تعالى- من كريم أخلاق الشيخ شيئًا كثيرًا لا يحصيه المحصي، من ذلك؛ أنه كان أشد رحمةً بخصومه ربما من بعض أهلهم، بلغه ذات مرة، أو قال ابن القيم: بلغني أن أحد خصوم الشيخ توفي، فذهبت مستبشرًا إلى الشيخ لأخبره، فاسترجع، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، اذهب بنا نعزي فيه، قال: فلما انتهى إلى أهله طلب منهم أن يكون لهم محل الفقيد، وأن إذا احتاجوا إلى شيءٍ أن ينصرفوا إليه، وأنه سيكون في حاجتهم، وهذا يدل على صفاء نفسه –رحمه الله تعالى-.

وهذه القضية الحقيقة لها علاقة بمقدار أثر العلم في القلب؛ لأن العلم يورث الخشية، والعلم يزيد في الإيمان، وكلما ازداد المرء إيمانًا، كلما صفا داخله.

لا يحمل الحقد من تعدوا به الرتب.... ولا ينال العلا من طبعه الغضب.

كذلك كلما زاد إيمان المرء؛ كلما قل تعلقه بالدنيا.

ومن هنا كان النبي –عليه الصلاة والسلام- في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، كان أشد كرمًا، أجود بالخير من الريح المرسلة –صلى عليه وعلى آله وسلم-، ذكر الحافظ بن حجر –رحمه الله تعالى- أن سبب هذه الأريحية أو زيادتها؛ لأن الأصل في النبي –صلى الله عليه وسلم- أنه كريم، لكن السبب في هذه الزيادة في رمضان هو حصول ثلاثة أشياء:

- الظرف الزماني الصالح، وهو رمضان.
- ثم قراءة القرآن.
- ثم اللقاء بالصالحين وهو جبريل.

فلما اجتمعت هذه التي -دعونا نسميها- روافع الإيمان، يصبح الإنسان أقل تعلقًا بالدنيا، وأكثر سخاءً بها.

فشيخ الإسلام كان كريمًا وشجاعًا وزاهدًا وصاحب تبتل وعبادة، لا ينقطع عن الذكر، يحدث ابن القيم عن شيخه –رحمه الله تعالى–: أنه كان يجلس في مصلاه من بعد صلاة الفجر إلى أن تضرب الشمس في نحر الظهيرة، يقول: هذه غدوتي لو لم أتغدها لم تكد تحملني أقدامي.

وذكر ابن عبد الهادي، أو غيره مرةً، أنه رمق الشيخ بعد صلاة الفجر، قد قعد في مصلاه إلى منتصف النهار، قال: وكان –رحمه الله تعالى– يكرر سورة الفاتحة؛ لأنها أعظم سورة في كتاب الله، السبع المثاني والقرآن العظيم.

ومع عناية الشيخ –رحمه الله تعالى– بالقرآن، وبالذكر إلا أنه لما حُبس في سجن القلعة في أخريات حياته، وانصرف بكليته إلى القرآن، ندم أن لم يكن صرف كل الوقت في كتاب الله –تبارك وتعالى–.

إذًا صفاته: الكرم والشجاعة والزهد وكثرة العبادة والذكر، وأما صفاته الخلقية: فكان أبيض اللون –رحمه الله تعالى–، كان أسود الشعر، قليل الشيب، ربعةً لا بالطويل ولا بالقصير، وكان جهوري الصوت، فصيح اللسان، سريع القراءة –رحمه الله تعالى–، وكانت فيه شدةٌ، لكنه كان يكبتها بالحلم كما قال الذين ترجموا لشيخ الإسلام.

وأما جهاده؛ فقد جاهد التتار غير ما مرة، وكان يرفع عزائم الجند، ويطوف بينهم، ويذكرهم بالله، وقاتل التتار مرةً، وقال للناس: ننتصر عليهم، فقالوا: قل إن شاء الله، فقال: أقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا.

أُبتُلي غير ما مرة، وتسلط عليه الحُساد؛ سواءً في قضايا الاعتقاد؛ لأنه ظهر في عهده الأشاعرة، وأهل الكلام، والجهمية والمعتزلة، وكان شوكة في حلوقهم –رحمه الله تعالى–؛ ولذلك وشوا به غير ما مرة إلى السلطان، وسُجن في أكثر من فتوى، وقد مات في سجن القلعة –رحمه الله تعالى– مسجونًا، وهذا كان عام سبعمائة وثمانٍ وعشرين.

وإذا قلنا: إنه وُلد عام واحد وستين وستمائة للهجرة، وتوفى سنة سبعمائة وثمانٍ وعشرين، فإنه لم يعمّر –رحمه الله تعالى– إلا سبعًا وستين سنة، كانت حافلة بالعلم والتدريس والوعظ والجهاد والتأليف، وتقرير معتقد أهل السنة، فرحمه الله رحمةً واسعة.

من لطيف ما ذكر أهل العلم عن العقيدة الواسطية، طبعًا سبب تسميتها بالواسطية –كما مر معنا– أن رجل من أهل "واسط" طلب من شيخ الإسلام أن يكتب له هذه العقيدة؛ فكتب له الإمام –رحمه الله تعالى– كتابًا سماه "اعتقاد الفرقة الناجية"، أو كتاب "الاعتقاد"، ثم عُرف بعد ذلك "بالعقيدة الواسطية" نسبةً إلى هذا الشيخ الواسطي.

لكن من الطرائف أن شيخ الإسلام كتب هذه العقيدة في وسط عمره، فهي واسطية بهذا الاعتبار، وكتبها بعد صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى، فهي أيضًا واسطية بهذا الاعتبار، وكتبها –رحمه الله تعالى– في اعتقاد أهل السنة

والجماعة، وهم وسطٌ كما قرر في آخر الرسالة، فإنه سيمر معنا في آخر الرسالة، أن شيخ الإسلام قرر أن أهل السنة وسطٌ بين الخوارج مثلًا الذين يكفرون بالكبيرة، وبين المرجئة، وهم وسطٌ في باب الأسماء والصفات بين هؤلاء وهؤلاء، فذكر وسطية أهل السنة استنادًا إلى قول الله –تعالى-: ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة:١٤٣] فكانت واسطية أيضًا بهذا الاعتبار.

فمن طرائف تسميتها بالواسطية؛ أنها نسبةً إلى واسط بالعراق، وأيضًا كتبها في وسط عمره، وكتبها بعد الصلاة الوسطى، وكتبها في منهج أهل السنة، الذين هم وسطٌ بين الطوائف.

خصائص رسالة العقيدة الواسطية أيضاً:

هذه الرسالة الحقيقة لها خصائص ومميزات، العقيدة الواسطية (٣٧:٢٠) هذه الرسالة لها مميزات؛ من مميزاتها:

– أنها رسالةٌ جامعة، فبالرغم من صغر حجمها إلا أنها رسالة جامعة، جمع فيها مراده –رحمه الله تعالى- من بيان معتقد أهل السنة والجماعة في قضايا الأسماء والصفات، وقضايا الإيمان باليوم الآخر، وقضايا التكفير، وتكفير المعين، وقضايا الإثبات والنفي ... إلى آخره.

– ومن خصائصها أيضًا: أنها تعتبر رسالة متأخرة، شيخ الإسلام عاش في القرن السابع الهجري، يعني هذه الرسالة جاءت بعد كتب الاعتقاد، مثل: كتب الإمام ابن منده، كتب اللالكائي، كتب ابن خزيمة، كل هذه الكتب متقدمة، كتاب الإمام البخاري ... إلى غيره، فكون الرسالة جاءت متأخرة، معناها أنها أحاطت بما كتبه الأئمة في أبواب الاعتقاد، فجاءت خلاصةً، أو جاءت معتصرًا من المختصر.

– ومما يميزها أيضًا: أنها كتبت بلسان الشريعة، وحين نقول: بلسان الشريعة، فإننا نجد شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى- قد كال فيها الكثير من الآيات والأحاديث، وهذه ميزةٌ كبيرة.

لماذا نقول إنها ميزة؟ لأنه لا يعرف هذه الميزة إلا من قرأ عن الاعتقاد، أو الأصول على طريقة المتكلمين، فإنك تمر بالكتاب الكامل لا تكاد تجد آيةً ولا حديثًا، وإنما هي حجج عقلية، ومقدمات فلسفية منطقية، يراد منها إثبات ما يراد إثباته، ونحن نقول: إذا كان الكتاب خلوٌ من هذا النور فأي نورٍ فيه.

شيخ الإسلام كان محادًّا لطريقة أهل الكلام، وهو القائل –رحمه الله تعالى-: علم الكلام لا يحتاج إليه الفقيه، لا يحتاج إليه العالم، وتعرفون مقول الشافعي وغيره في المشتغلين بعلم الكلام، الشافعي –رحمه الله تعالى- يقول: حكمي في أهل الكلام؛ أن يُضربوا بالجريد والنعال، وأن يُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على علم الكلام.

فميزة هذه الرسالة؛ أنها كُتبت بلسان الشريعة، حشاها بالكثير من الآيات، بالكثير من أحاديث النبي –عليه الصلاة والسلام-؛ فكان من نتاج ذلك مخرجاته اليسر والسهولة والسلاسة والانشراح أثناء قراءتها أو شرحها، بعيدًا عن طريقة أهل الكلام والفلسفة.

- ومن خصائص العقيدة الواسطية أيضًا: فهم شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى- لكلام الأئمة الكبار، واستجماعه وتلخيصه، وكنت قد ذكرت لكم قبلها أن هذه رسالة متأخرة، جاءت بعد كتب المتقدمين، فشيخ الإسلام استوعب كل هذه الكتب، ثم لخصه بعبارته الجامعة المانعة في هذه الرسالة.

كذلك تمتاز العقيدة الواسطية بحسن الترتيب، بحسن الانتقال من المقدمة إلى النتيجة، ومن المسألة إلى أختها، وهذا لا يعني أنها لم تضمن حججًا عقلية، صحيح أنه ملأها بالنصوص، لكها تضمنت حججًا عقلية في الرد على أهل الكلام؛ لأن شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى- كما يقول عنه تلاميذه: كان أعلم بالكلام حتى من أهل الكلام.

شيخ الإسلام كان أعلم بالكلام حتى من أهل الكلام أنفسهم، فجادلهم وحاجَّهم بنفس بضاعتهم، وهو المنطلق من قاعدته التي تقول: إن صحيح المنقول لا يتعارض مع صريح المعقول، أعيد قاعدة شيخ الإسلام: أن صحيح المنقول، الأدلة الصحيحة التي نُقلت إلينا من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- والقرآن الكريم لا يتعارض أبدًا مع العقل.

ولذلك ألف كتابًا ضخمًا، اسمه "درء تعارض العقل والنقل"، فهو صاحب قاعدة تقول: إن الشريعة لا تأتي بمحالات العقول، الشريعة لا تأتي بمحالات العقول، قد تأتي بمحارات العقول، يعني: قد تأتي الشريعة بأمرٍ تحار فيه العقول، تلبث فيه الأفهام وقتًا حتى تستوعب القضية، لكن أن تأتي الشريعة بشيء يُضاد العقل، فهذا ما لا يمكن أبدًا.

إذا جاء أمر شرعي معارض للعقل، فهو إما أن نتهم أن هذا ليس بالعقل الصحيح، وإما أن نتهم النقل، فنقول: ابحثوا في سند الحديث، فقد لا يكون صحيحًا، إذًا قاعدة الشيخ: أن صحيح المنقول لا يتعارض مع صريح المعقول،

وهذه القاعدة على وجازتها ستمر معنا كثيرًا، وسنعرف كيف أدمغ بها شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى–حجج الآخرين، الذين استندوا إلى لوازم باطلة، وأرادوا بهذه اللوازم أن يبطلوا بها حقًا.

حتى لا يكون الكلام مجرد عن التمثيل، أذكر لكم على وجه السرعة مثلًا: هناك من نفى بعض الصفات عن الله –سبحانه وتعالى–، يعني: من المعطلة من نفى عن الله –سبحانه وتعالى– صفة الوجه، فإذا سُألوا لما تنفون عن الله الوجه؟ قالوا: لأنه يلزم من إثبات الوجه تشبيهه بالمخلوقين، هذا اللازم باطل أصلًا.

فنتج عن هذا اللازم الباطل ما هو أبطل منه، وهو إنكار الآيات، والنصوص التي ذُكر فيها نسبة الوجه لله –تبارك وتعالى–، وهذا من أبطل الباطل، إذًا شيخ الإسلام يهدم قاعدتهم، ويسويها بالأرض، ثم يقيم على أنقاضها قاعدة صحيحة.

فيقول، أو مقتضى كلامه يقول: أن إثبات الوجه لله –تعالى– لا يستلزم منه تشبيهه بالمخلوقين؛ لأن المخلوقين لهم أوجهٌ لا يشبه بعضها بعضًا، أليس للفيل وجه؟ وللنملة وجه؟ هل إثبات الوجه للفيل معناه مماثلة الفيل للنملة؟ بينهما بين شاسع.

للإنسان وجه، وللحيوان وجه، ولا يقتضي إثبات الوجه للإنسان، أو الحيوان، أن أحدهما يشبه الآخر، فإذا كان ذلك في المخلوقين مع التقارب النسبي بينهم من حيث كون الجميع مخلوق، فكيف بين الخالق والمخلوق؟!.

– إذًا مما يميز العقيدة الواسطية أيضًا: أن شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى– أشار إشارة إلى المخالفين، ورد عليهم، تارةً يرد عليهم بالنصوص ويكفيه بذلك، وتارةً ينزل معهم في الحجج فيرد عليهم بحججٍ إقناعية العقلية.

– ومما يميز العقيدة الواسطية أيضًا: أنها لم تهمل الجانب السلوكي، وهذا أمرٌ مهم جدًا عند الدارسين للاعتقاد والمدرسين له، وهو: أن الاعتقاد ليس خلوًا عن السلوك.

يعني: اليوم مَن ينادي مثلًا، أو يقول: أنا سلفي العقيدة، ولا يكون سلفيًا في سلوكه وأخلاقه، نقول له: إن منهج السلف الصالح –رحمهم الله تعالى– كلٌ لا يتجزأ، فكما صح اعتقادك فلم تشرك، ولم تمثل، ولم تشبه، ولم تعطل، ينبغي أيضًا أن يستقيم سلوكك على ما كان عليه أحمد والشافعي وابن منده والبخاري، وغيرهم.

الشيخ –رحمه الله تعالى– ألمح إلى الجانب السلوكي كمخرج من مخرجات العقيدة الصحيحة في آخر رسالته، وكثمرةٍ، والاعتقاد الصحيح لا بد أن يثمر سلوكًا صحيحًا.

وتخلف العمل سواء في جانب السلوك، أو في جانب العبادة، تخلفه عن العلم، مصيبةٌ ورذيةٌ كبرى، يُذكر بها المشتغلون بالعلم، والتعليم كل مرة، ولذلك يُثاب حديث عمر: «**إنما الأعمال بالنيات**»؛ لأن من إخلاص العمل: أن يوافق العمل العلم.

وعالم بعلمه لم يعملن ... معذب من قبل عباد الوثن.

هناك مقدمات يطيل فيها أهل العلم بين يدي الكتب، وبين يدي العلوم، من ذلك المقدمات المعروفة في كل علم.

إن مبــادىء كــل علــمٍ عشــرة ... الحـــد والموضـــوع ثم الثمـــرة
وفضـــله ونســـبته والواضـــع ... والاســم الاســتمداد حكــم الشــارع
مســائل والــبعض بالــبعض اكتفــى ... ومــن درى الجميــع حــاز الشــرف

لكن أحببت في هذا اللقاء الأول، أن أُعرج هذا التعريج البسيط، ثم بعد ذلك ندرس إلى الكتاب، ونشرح مفرداته، فنحاول أن نقسمه تقسيمًا يقرب إلى فهمه، ويسهل الوصول إلى مراد مؤلفه –رحمه الله تعالى-.

أسأل الله –جل وعلا- أن يعلمني وإياكم ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يرزقنا الهدى والبصيرة والعلم، كما أسأله –جل وعلا- أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وألا يجعل لأحدٍ في هذا العمل حظًا ولا نصيبًا، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم.

اللهم يا معلم إبراهيم علمنا، ويا مفهم سليمان فهمنا، نسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وقلبًا خاشعًا، ولسانًا ذاكرًا، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله.

تم إلقاؤه يوم السبت ٧ صفر ١٤٤١ هـ الموافق ٥\١٠\٢٠١٩

معهد العلوم الشرعية العالمي